

الشخصيات المرجعية وفق منهج فيليب هامون رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" أنموذجا

أ / هجيرة طاهري

جامعة محمد خيضر بسكرة-

- مفهوم الشخصية عند "فيليب هامون":

يعرّف (هامون) الشخصية على أنّها «وحدة دلالية» علامة قابلة للوصف والتحليل ولا تولد إلاّ من خلال ما تقوله أو ما تفعله أو ما يقال عنها في النص». (1)
ويختلف (فيليب هامون) عن (بروب) بأنّه «لا يسأل الشخصية عن ماذا تفعل فقط، مثل مساءلة "بروب" لها، وإنّما ماذا تقول وماذا يقال عنها أيضا» (2). كما نجد أنّ "هامون" ربط الشخصيات بثلاثة أنواع من الدلائل، ثم قام بقرن هذه الدلائل بثلاث فئات من الشخصيات كذلك وكانت هذه الدلائل كالآتي:

«1- منها ما يحيل على واقعية العالم الخارجي أو على مفهوم بنيوي، وتسمى الدلائل المرجعية.

2- ومنها ما يحيل على فعل التلفظ، وهي دلائل ذات مضمون، لا يتحدد معناه إلا من خلال موقعها داخل الخطاب.

3- ومنها ما يحيل على دلائل منفصلة من نفس الملفوظ...» (3) أما بالنسبة للفئات الثلاثة التي قرنها بها فهي كالآتي:

«1-الشخصيات المرجعية: وتتضمن الشخصيات الرئيسية، والتاريخية، والأسطورية، والمجازية..وأغلبها ثابت السمات»⁽⁴⁾. أما الفئة الثانية فهي « الشخصيات الواصلة (Personnages Embrayeure) وتكون عادة إشارة إلى حضور المؤلف والقارئ، ويمكن أن ندرج ضمن هذه الفئة شخصية الراوي في النصوص الروائية»⁽⁵⁾. وهناك اسم آخر لهذه الفئة وهو (الإشارية)، والفئة الثالثة هي: «فئة الشخصيات الاستذكارية: فيما يتعلق بهذه الفئة، فإن مرجعية النسق الخاص بالعمل وحدها كافية لتحديد هويتها، فهذه الشخصيات تقوم داخل الملفوظ بنسج شبكة من التدايمات والتذكير، بأجزاء ملفوظية...إنها شخصيات للتبشير فهي تقوم ببذر أو تأويل الأمارات الخ»⁽⁶⁾. ويقال لها الشخصيات (المتكررة) كذلك هذه الفئة، كما يجدر الملاحظة على أنه يمكن أن تنتمي شخصية واحدة إلى هذه الأنواع الثلاثة في وقت واحد أو بشكل متتابعي.

سنحاول الآن دراسة فئة الشخصيات المرجعية في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" حسب تقسيم فيليب هامون، والتي قسمها -كما سلف الذكر- إلى شخصيات ذات مرجعية تاريخية وشخصيات أسطورية، وشخصيات اجتماعية.

أ- شخصيات ذات مرجعية تاريخية:

« وهي الشخصيات التي ينشئها صاحبها انطلاقاً من شخصيات ذات وجود فعلي في التاريخ، وهذه المرجعية التاريخية تتفرع إلى عدة أنواع، كالسياسية والدينية والثقافية، كما يجب الانتباه أن بعض الشخصيات التاريخية لها أكثر من وجه، فقد تكون الشخصية قائداً عسكرياً وسياسياً وأماً دينياً ك (الإمام علي)»⁽⁷⁾.

1- الإخوان المسلمين:

كان الحديث عن الإخوان المسلمين وارداً في النص الروائي، منذ ذهاب "منصور" إلى مدينة (عين...) وزواجه من "ضاوية"، التي كان أخوها "عبد اللطيف" رئيس الجماعات الإرهابية، والمكثي (أبو أسامة). "عبد اللطيف" بعد زواج "الضاوية" أصبح يعيش وحده،

في الوقت الذي أصبح فيه الشبان يتكاثرون كالجراد باللحى السوداء ويرتدون أقمصة بيضاء. أزياء عادوا بها من أفغانستان، أولئك الذين خاضوا الحرب ضدّ الروس، ونفس الشيء مع "عبد اللطيف" «في تلك الأجواء القاتمة والأفق المجهول دخل علينا عبد اللطيف مرتدياً قميصاً طويلاً شديد البياض معتمراً شاشية لها نفس اللون، مطلقاً لحية سوداء، لا تزال في طور النمو»⁽⁸⁾.

بعد نجاح الجبهة الإسلامية في الانتخابات التشريعية، أصبح "عبد اللطيف" رئيس مصلحة في بلدية، لكن هذا الأمر لم يدم حيث ألغيت الانتخابات، وتمّ اعتقال مناضلي الجبهة الإسلامية «تلك الانتخابات التي ألغيت - كما قيل، من أجل حماية الديمقراطية والحيلولة دون العودة إلى القرون الوسطى»⁽⁹⁾. بعد هذه الأحداث، اختفى عبد اللطيف واشتهرت شخصية أبو أسامة التي لم يُعرف أي شخص حقيقةً إلى أن داعت حقيقته ذات يوم .

«ذات يوم ذكرت الصحف أنّ الاسم الحقيقي والكامل لـ "أبو أسامة" هو عبد اللطيف بن إبراهيم في ذلك اليوم أُغمي على ضاوية»⁽¹⁰⁾.

إذاً، هكذا كانت بداية أحداث قصة الجماعات الإرهابية في التّص، والتي طالت كذلك بطل الرواية منصور بطريقة غير مباشرة، "منصور" عندما تاب من ذنوبه قرّر أن يترك مدينته "لاكلاسير" وأن يذهب ليعيش في أشد أرض الله قساوة، حيث لا يجد فيها لا راحة ولا نعيم وخصوصاً النساء، كي لا يفسد عقده مع الله، فطمأنه "صالح الغمري" بأن لا يخاف لأنه لن يجد راحة في كل أرض الوطن، لكن يصعب على منصور أن يُعيّن في مدينة قاسية مثل مدينة (عين...) لأنه لا يُرسل إليها إلا المنفيون، لهذا كان عليهما أن يجدا فكرة تسهل لـ "منصور" التعيين فيها، ولم تكن أنسب فكرة له إلا تلفيق ملف يثبت انضمامه إلى الإخوان المسلمين، وكان له هذا وعين بمدينة (عين...) بعدها «إنّها تهمةٌ جيدة، فالإسلاميون

يمثلون الخطر الأول اليوم، يزدادون انتشاراً يوماً بعد يوم كالجراد»⁽¹¹⁾ هذه التهمة لم يحسب لها "منصور" حساب، حيث جعلت "عبد اللطيف" والجماعات الإسلامية يطعمون في انضمامه إليهم «أخانا الدكتور المحترم، جئنا لندعو لسيادتك إلى تعزيز صفوف أنصار الدين الحنيف لإقامة العدل ووضع حد لدولة الجور والفساد»⁽¹²⁾. لكن منصور أخبرهم بأنه عبدٌ ضعيف ولا يستطيع هذا، والأمر نفسه وقع فيه مع رجال الأمن الذين قاموا باستجوابه، وإعلامه بأنهم يعلمون بأمر انضمامه إلى الإخوان المسلمين «نحن نعرف، الحاج، أنك عضو في حركة الإخوان المسلمين»⁽¹³⁾ ويضيف قولها كذلك «الأخطاء التي تعيننا هي كالانتفاء إلى حركة الإخوان المسلمين يقول صاحب ربطة العنق؛ أي الجرائم مثل الانخراط في حركة دينية سرية تعمل من أجل الإطاحة بالدولة كما كان شأن الحاج»⁽¹⁴⁾ لكنها يخبرانه بأنهم لن يفتحوا الملف بشرط أن يربط علاقات مع "أبو أسامة"، أي "عبد اللطيف" نسيه خدمة للوطن و"منصور" يخبرها كذلك بأنه ضعيف ولا يقوى على ذلك.

2- الشخصيات السياسية:

لقد ورد ذكر الشخصيات في الرواية، لكن دون أن تشارك في الأحداث، حيث تمت الإشارة إلى الرئيس "هوارى يومدين" والرئيس "بن بلة" دون ذكر أسماهم، أما الرئيس الراحل "محمد بوضياف" فقد ذكر مع ذكر تفاصيل حادثة اغتياله.

«جنود الولاية الثالثة التابعة لمنطقة القبائل، حيث يوجد مسقط رأس كلٍ منها عادوا إلى الجبال، معلنين الحرب هذه المرة ضد نظام أول رئيس جمهورية جزائري»⁽¹⁵⁾.

منطقة القبائل كانت مسقط رأس والدي "منصور"، ممّا يعني أنّ منصور قبائلي كذلك مثل كاتب الرواية "إبراهيم سعدي" الذي ينحدر من (تيزي وزو). في هذا المقطع يتم ذكر أول رئيس جمهورية جزائري دون ذكر اسمه وهو (بن بلة) وقد كانت نتائج هذه الأحداث العديد من القتلى كذلك من الناس الأبرياء، بسبب الثورة ضد الرئيس بن بلة «الانقلاب وقع منذ أسبوع، فور أن رأني نزل من على الكرسي تاركاً على الأرضية، لصق

الحائظ صورة العقيد بجانب الرئيس المخلوع الذي كانت صورته تظهر كعادته باسماء بملء شفثيه»⁽¹⁶⁾.

وهنا نجد يشير إلى العقيد "هوارى بومدين" الذي أحدث انقلاباً ضد الرئيس "بن بلة"، حيث أنّ العقيد "هوارى بومدين" لم يتفق مع الرئيس "بن بلة" حول قضية الضباط الجزائريين الذين كانوا يعملون في فرنسا. العقيد "هوارى بومدين" كان يود أن يضمهم والرئيس كان رافضاً لهذا، لهذا أجرى العقيد انقلاباً ضده وقام بخلعه من الرئاسة.

«الرئيس بوجهه الحافل بالتذمر والقرف وهو يقدم استقالته بصورته الموحية بنبراته بالحرص على التمسك بمظاهر الهيبة»⁽¹⁷⁾ الرئيس الذي قدم استقالته هو الشاذلي بن جديد ثالث رئيس جمهورية للجزائر «قدم استقالته في 11 جانفي 1992 تاركاً الجزائر في أزمة سياسة خانقة»⁽¹⁸⁾. يقول "منصور" أنه قدم استقالته ربما خوفاً من أن يقتل مثل الرئيس السابق «ربّما هو خائف أن يقتلوه كما قتلوا الرئيس السابق "يعود إلي بدوره، الرئيس المقتول الذي جيء به من المنفى يظهر في ذهني وهو يلقي على المنصة خطابه الأخير...توقف الرئيس عن الإلقاء ملتفتاً إلى يساره، متسائلاً عن الأمر أي عن تلك الجلبة الغربية المقلقة، الآتية من خلفه، جمهور القاعة وهو يحتفي في لمح البصر وراء المقاعد وسط أزيز الرصاص جثة الرئيس...»⁽¹⁹⁾. كان هذا نقلاً لأحداث مقتل الرئيس محمد بوضياف رحمه الله، تقريباً كما وقعت نجد أنّ الروائي إبراهيم سعدي قد استعان بالأحداث الكبرى للجزائر في بناء الرواية من خلال توظيف شخصيات ذات مرجعية، سياسة "هوارى بومدين" و"الشاذلي بن جديد" و"بن بلة" و"بوضياف"، وكأنّه يؤصل للرواية الجزائرية من خلال هذه الشخصيات الوثائقية التاريخية.

بالإضافة إلى الشخصيات السياسية العربية، قام بتوظيف شخصيات سياسية غربية مثل: (لينين)- (ماركس)- (تروتسكي)- (روزا لوكسمبورغ) وهم أعلام الشيوعية. وشخصيات سياسية فرنسية مثل: (ألبير الأول)- (الجنرال دوبورمون).

جرى ذكر الشخصيات الشيوعية أثناء دراسة منصور في فرنسا، وتعرفه على "سليين" اليهودية، التي كان لها فكرٌ سياسي شيوعي، وأرادت أن تغير فكر "منصور" ليصبح مثلها ويترك البرجوازية الصغيرة المتعفنة «في تلك الأيام كانت سيلين منشغلة بتكويين السياسي كانت لا تفتأ تحدثني عن ماركس ولينين وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ، منها مثلاً تعلمت أنّ النظام الجزائري هو نظام "برجوازي متعفن"»⁽²⁰⁾ لكنها لم تستطع تحقيق هذا لأنّها لم توفق في إقناعه بعدم وجود الله.

حتى إنّها لم توافق أن تمارس الحب معه حتى يتغير «ظلت تنتظر إلى أن اكتسب وعياً ماركسياً- لينينياً حتى تتعرى أممي»⁽²¹⁾ ولكنها لم توفق كذلك، وكان أول، برجوازي صغير تمارس معه الحب.

3- الشخصيات الثقافية:

تعددت ثقافة الروائي الذي كان يتكلم على لسان بطل الرواية "منصور"، فجمعت بين الثقافة الدينية والأدبية والغربية من خلال توظيفة لشخصيات ثقافية ذات مرجعية دينية وأدبية وكذلك شخصيات ثقافية غربية، هذه الشخصيات التي ذكرها لم تشارك في أحداث الرواية مثلها مثل الشخصيات السياسية والتاريخية، إلا أنّها عبّرت عن أفكار معينة يريد الكاتب إيصالها للقارئ، كما أنّها تشير بطريقة غير مباشرة كما قلت سابقاً إلى ثقافة الكاتب، ويمكننا تقسيم الشخصيات الثقافية على الشكل التالي:

3-1- شخصيات ثقافية دينية:

أ- عبد الباسط عبد الصمد:

"منصور" أثناء حمل "ضاوية" زوجته كان سعيداً جداً، وفي الوقت نفسه خائفاً كثيراً من الله أن يعاقبه، بسبب ما ارتكبه من آثام في فترة شبابه، فيأتي ولده مشوهاً أو يشبه الخنزير كما قال، لهذا كان دائماً يضع أشرطة القرآن الكريم لتستمع إليها "ضاوية"، خصوصاً للمقري "عبد الباسط عبد الصمد" «تحوّلت إلى استخدام أشرطة تجويد الذكر الحكيم بصوت عبد الباسط عبد الصمد»⁽²²⁾ ظناً منه إن فعل هذا يساعده في أن يغفر الله له ولا يعاقبه في ابنه ويولد سليم ومعافى.

ب- مالك بن نبي:

بعد أن ضاقت الدنيا أمام "منصور"، لكثرة ذنوبه التي اقترفها في حياته، فأصبح يتمنى الموت ليربحه الله من نفسه الأمانة بالسوء ولم يجد الموت، لهذا قرّر الابتعاد عن كل شيء يثير شهوته، فلم يجد سبيلاً إلا اللجوء إلى صديقه "صالح الغمري" كي يساعده في التعيين في منطقة من أشد أرض الله قسوة، ولقد نصحه صالح الغمري بأن ينسب إليه تهمة مثل الاتيء إلى الإخوان المسلمين، وافقه "منصور" على هذه الفكرة وطلب منه أن يضيف كذلك بأنه يسمع محاضرات (مالك بن نبي) كذلك «لكن إن شئت يمكن أن أعطيك معلومات قد تستخدمها ضدي

- مثلاً؟

- استمعت إلى إحدى محاضرات الفيلسوف مالك بن نبي»⁽²³⁾ إنَّ سماعه لمثل هذه المحاضرات قد تجعله من المشبوهين، ويسهل له أن ينفى إلى مدينة (عين...)

ج- الإمام أبي حامد الغزالي:

أشار الكاتب إلى شخصية "الإمام أبي حامد الغزالي" في قول "منصور": «أبقي هنا، ضاوية، سأذهب لأفتحه، أقول لها وأنا أقوم من مكاني، تاركاً المائدة التي كنت جالسا إليها أقرأ كتاب "المتخذ من الضلال" للإمام أبي حامد الغزالي»⁽²⁴⁾. وتجدر الإشارة هنا إلى كتاب

"المنقذ من الضلال". ف"منصور" يسعى إلى التوبة، التي تغسل ذنوبه التي رافقته طيلة حياته وهذا الكتاب خير معين على هذا.

2-3- شخصيات ذات مرجعية ثقافية (غربية):

الشخصيات ذات المرجعية الثقافية الغربية هي كذلك لم تشارك في الأحداث، لكن تبرز بشكل واضح ثقافة الكاتب المتنوعة بين الثقافتين العربية والغربية، وتوظيفها في النص الروائي يزيد رونقاً ومهارة من خلال المزاجية بين الثقافتين، فمن خلال تجوّل "منصور" في مكتبة "كلير ردمان" التي في منزلها يعرض لنا هذه الشخصيات الغربية «هي أيضاً وجدتها لا تزال تحتفظ بكامل محتوياتها، أي بكتبها أساساً: بلزاك، كامو، مالرو، سارتر، هيكو صالد، مونتسكيو، ماركس، لينين، بكونين، همجواي، ستاينيك، كافكا، كاتب ياسين، فرويد ابن خلدون، القرآن، الإنجيل، التوراة.. غوته»⁽²⁵⁾.

كما نجد كذلك أسماء غربية وردت في النص لبعض الشوارع والأماكن، ف"منصور" بعد غيابٍ طويل بينه وبين السيدة "كلير ردمان" التقى بها «يوم رأيتُ سيدة تتقدم نحوي في شارع مونبارناس، في الوهلة الأولى لم أتعرف عليها، ثمّ أحسست كما لو أنّي أعود عدّة سنوات إلى الخلف»⁽²⁶⁾. لم يتوقع "منصور" أنّه سيلتقي مرة أخرى بمعلمته وعشيقته السابقة "كلير ردمان" إلى أن التقيا في هذا الشارع بباريس المسمى "مونبارناس" وهي شخصية مرجعية أخرى.

كما نجد كذلك ذكره لشارع "شاتلي" بباريس «واصلنا السير في شارع شاتلي يدي في يدها بين الحين والآخر كنت ألتفت إلى الخلف»

بالإضافة إلى شخصية الرسام "إيتيان دينيه" الذي أسلم فيما بعد وأصبح اسمه "نصر الدين"، أشار المؤلف كذلك إلى هذه الشخصية الغربية عندما كان "منصور" يتجوّل في منزل السيدة "كلير ردمان" «كانت لوحة الرسام إيتيان دينيه الممثلة لنساء أولاد نايل الموشمات الوجه، المرتديات ثياباً تقليدية مبرقشة»⁽²⁷⁾.

أمّا الفضاء المكاني الثالث الذي ورد باسم شخصية غريبة هو "فيكتور هيجو" «جاءت بعد ذلك فترة لم أجد ما أفعله، نصيرة تزوجت، زوجة أيها أصبحت بعيدة عني، والشقراوات الأوروبيات اللائئ صرت أدرس معهن في ثانوية "فيكتور هيجو" بحسين داي»⁽²⁸⁾.

هذه المجموعة من الشخصيات الثقافية الغربية، عملت على بناء النّص الروائي وإثرائه وهي تتيح افتتاح القارئ على ثقافة الآخر، والخروج من خير الثقافة الواحدة.

4- الشخصيات الفنية:

الشّخصيات ذات المرجعية الفنية كانت قليلة في النّص الروائي الذي بين أيدينا، لكننا نجد شخصية الفنان التشكيلي (الهاشمي سليمان) الذي أثبت حضوره من خلال إشراكه في بعض الأحداث، كما أنّه شهد الأزمة التي مرّت بها الجزائر في فترة التسعينات وكان منها هو كذلك، "الهاشمي سليمان" هو ابن أخت زوجة الحاج "منصور" أي ابن "رانجة" أخت "ضاوية".

"الهاشمي سليمان" كان فناناً أصم وأبكم، لكن رغم هذا كانت له أنامل من ذهب تشهد عنها اللوحات التي رسمها، وهو الذي كان له فضل نقل هذا المخطوط إلى الكاتب كي يعيد كتابته ونشره بكل أمانة، رغم أنّ الحاج "منصور" لم يكتب هذا المخطوط لغرض نشره، بل من أجل شفاء نفسه التي غرقت في الضلالة ولم يرحمها لا الحج، ولا أي شيء آخر إلا طريقة البوح التي نصحت بها زوجته "ضاوية" من خلال هذه المذكرات «منظر الرجل الذي جاءني به لم يكن بدوره يبعث على الاطمئنان، فقد كان طويل الشعر، كثيف اللحية، محموم النظر يرتدي سروال جينس قديم وسترة جلدية أكل عليها الدهر وشرب...والشيء الذي أركني أكثر خصوصاً في بداية تعرفي عليه. أنه أصم وأبكم»⁽²⁹⁾. يقول الكاتب في الوهلة الأولى ظن أنه مجنون إلى أن استعان بشخص يفهم لغة الصّم البكم، استطاع أن يعرف أنه فنانٌ

تشكيلي وهذا الاسم الذي يحمله هو اسم مستعار ليس حقيقي، فكان هذا المخطوط شاهداً كذلك على حياة هذا الفنان، "الهاشمي سليمان" كانت علاقته طيبة مع الحاج "منصور" ومع "عبد اللطيف" (أبو أسامة) ابن أخته قبل أن يصبح إرهابياً، وقد تأثر كثيراً بأحداث العشرية السوداء، ومسه ضررها هو وغيره من الفنانين في الجزائر، حيث عرفت هذه الفترة مقتل العديد من المثقفين والفنانين وهجرة أغلبهم إلى الخارج، "الهاشمي سليمان" كان يشعر بالخوف بعد أحداث القتل هذه لهذا قام بتغيير مظهره « ربما ما كنت لأتعرّف على الهاشمي سليمان على الأقل من الوهلة الأولى، لو لم تخبرني ضاوية بقدمه، حلق لحيته وقصّ شعره وغيرَ تسريحته، استنتج بأنه خائف»⁽³⁰⁾. وهناك بعض الأحداث أثّرت في "الهاشمي سليمان" تأثيراً بليغاً، حيث أنّه كان يملك مجموعة من اللوحات التي قام برسمها، ونظراً للأوضاع السيئة للبلاد قرّر أن يخبئها عند الحاج "منصور" يقول "منصور": «أو لم تأتيا البارحة لتتوسلا إلي بأن أخفي لوحات الهاشمي عندي؟ أو لم تقولوا أنّ شخصاً قال لكم إنّ أخاك عبد اللطيف أرسله لينقل لكم أمره بإحراق لوحات ابنك»⁽³¹⁾. نجد أنّ "عبد اللطيف" المكنّى "أبو أسامة" قد حكم بالإعدام على لوحات "الهاشمي سليمان"، وهنا نلاحظ كذلك قتل الفنان معنويا، بالإضافة إلى القتل الجسدي، لكن لوحاته لم تعرف الأمان في منزل "منصور"، حيث لقيت مصيرها الذي ينتظرها، لقد حُرقت وثقبت هذه اللوحات بوابل من الرصاص، لم يستطع "الهاشمي سليمان" الاقتراب منها حيث وقف بلا حراك وكأنه يقف على قبره، أو أمام جثة إنسان عزيز عليه .

أصبح الخوف يكبر مع "الهاشمي سليمان" خصوصاً بعد مقتل فنان صديق له، فصديقه هذا شارك معه في العديد من المعارض واشتهر بـ «رسم مناظر البحر والطبيعة الميته وأزقة القصبة والنساء في أعراس الزواج»⁽³²⁾ هذه الأحداث الدامية تركت العديد من الفنانين يهاجرون من الجزائر إلى بلدان أوروبية أخرى، فكان حال الفنانين «بعضهم قُتل وبعضهم هرب، وبعضهم يعيش في الخفاء»⁽³³⁾.

والأمر نفسه مع "الهاشمي سليمان" الذي هاجر إلى "بلجيكا" «أضع الساعة مستديراً نحو ضاوية وأختها، الهاشمي هرب إلى بلجيكا»⁽³⁴⁾.

كانت هذه الشخصية الفنية التي شاركت في أحداث الرواية، أمّا الشخصية الأخرى فقد ذُكرت فقط دون أن تشارك في الأحداث، وهو الرسام "إيتيان دينيه" الذي كانت للسيدة "كليرردمان" صورة له في منزلها «الممثلة لנסاء أولاد نايل الموشات الوجه المرتديات ثياباً تقليدية مبرقشة، المحملات بالخلي»⁽³⁵⁾ أُعجب هذا الفنان الغربي بمنطقة "بوسعادة" كثيراً ورسم العديد من اللوحات لأهل هذه المنطقة، وقد أسلم هذا الفنان وأصبح اسمه "نصر الدين".

5- الشخصيات ذات المرجعية الاجتماعية:

«وهي شخصياتٌ تحيل على نماذج أو طبقات اجتماعية أو فئات مهنية، وأفعالها مستقاة من مجتمع له وجود حقيقي، فهي محيلة في بعض جوانبها عليه ومنتزلة فيه»⁽³⁶⁾ تحوي الرواية العديد من الشخصيات من هذا النوع ابتداءً بالسيدة "كليرردمان" إلى "المنفيين" و"عبد الواحد" بن "منصور"، سنحاول الآن دراسة هذه الشخصيات ذات المرجعية الاجتماعية.

1- السيدة كليرردمان:

"كليرردمان" هي من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، كانت معلمة "منصور" في المرحلة الابتدائية، منحت منصور اهتماماً خاصاً أثناء التدريس كي لا تحسسه باختلافه عن أترابه، فمنصور كان يبدو أكبر من زملائه رغم أنه في نفس سنهم، صوته كان يمتاز بالحشونة «بدأ ينمو لي شارب وبنبت الشعر على ساقِي، ويتضخم صوتي»⁽³⁷⁾.

بعد استقلال الجزائر كان على أصحاب الأقدام السوداء أن يغادروا الأراضي الجزائرية وكانت السيدة "كليرردمان" منهم، وفي حوار بينها وبين منصور حول استقلال الجزائر،

أخبرته أنّ الجزائر تستحق الاستقلال، لكن كان يعز عليها مغادرة الجزائر لأنّها وُلدت فيها وكل أجدادها مدفونون في أرضها.

2- المنفيون:

"المنفيون" هم كل شخص يُنفي إلى (عين....)، لأمر سياسية اقترفها هذا الشخص، أو لعدم رضوخهم للسلطة وتنفيذ أوامرها، حتى وإن كانت هذه الأوامر منافية لأخلاق هذا الشخص ومبادئه وبها ضررٌ كذلك، وأغلب هؤلاء المنفيين هم من الأساتذة والقضاة والسياسيين والصحفيين وغيرهم، ومن هذه الشخصيات لدينا بعض النماذج في الرواية:

1- حميدة رمان (فيلسوف).

2- فارج قادري (شاعر).

3- جمال بقة (صحفي).

4- مقران أعراب (قاضي).

5- مبارك المزغراني (سياسي).

6- عبد الحق لفقير (موظف).

6- الشخصيات المجازية:

الشخصيات المجازية ليست بشخصيات مادية ملموسة، بقدر ما هي معنوية، يستخرجها القارئ من خلال استنتاجه لعلاقة شخصيات الرواية مع بعضها البعض، ومع نفسها، وقد خصّها "فيليب هامون" في صفحتين اثنتين من خلال تحديده الشخصيات المرجعية

«شخصيات مجازية (الحب، الكراهية)»⁽³⁸⁾ وإذا عدنا إلى الرواية، نجد أنّ صفتي

الحب والكراهية متواجدتان كثيراً ومتعلقتان بشخصية "منصور" وعلاقته مع الشخصيات النسوية التي عاشها في حياته، وعلاقته مع نفسه.

من خلال علاقته مع نفسه نجد أنّ صفة الكره تحضر بقوة في النص، من خلال كرهه لذاته فمصور كان كل ما ابتداءً علاقة مع امرأة، تتبدىء بحب جسدي ثم تنتهي بكره ذاتي لنفسه، وأولى علاقات الحب (الجسدي) بدأت كما ذكرنا سابقاً مع معلمته "كليردمان" وهو في سن الثانية عشر، حيث بدأ ينجذب إليها شهوانياً، ولكنه لم يمارس معها الحب إلا بعد بلوغه.

وثاني فتاة أحبها وأحس بشبقية اتجاهها هي "نصيرة" أخت صديقه "شريف"، التي كانت تكبره سناً «لم أر منها في يوم من الأيام شيئاً جعلني أشك في براءة سلوكها، مع نصيرة التي أرجو الله أن يكون قد يسّر لها حياتها وأثار دربها وحقق لها مبتغاه، لم أحس في يوم من الأيام بالحاجة إلى إخفاء أي شيء ممّا حلّ بي، عدا ما كان يجيش في صدري من نوايا لئيمة ومشاعر مخجلة»⁽³⁹⁾ "منصور" كان مفتوناً "بنصيرة" أخت "شريف" كذلك وكل نواياه كانت سيئة اتجاهها.

وكانت له علاقة حب (جسدي) كذلك مع "وردية" زوجة أب "شريف" التي مارس معها الحب في منزلها.

ونفس الشيء صار مع "مسعودة" جارتم المطلقة، والتي حملت منه، وكانت له علاقات حب مع نساء أخريات كثيرات، لكن هذه العلاقات كانت بداية لكره نفسي لذاته، ولقد كان هناك العديد من المواقف التي عبر فيها "منصور" عن كرهه لنفسه لاقترافه كل هذه التصرفات غير الأخلاقية.

الكره الناتق:

"منصور" كان دائماً يشعر بتأنيب الضمير، لأنه ترك ابنه من "مسعودة" وهرب مسرعاً كي لا تلحق به «أفكر بأنّ ولدي الشحاذ ربما صار إرهابياً من يدري؟ فكيف لمثله أن

يجب مجتمعه؟»⁽⁴⁰⁾ يؤنبه ضميره لأنه ربّما يكون السّبب في أن يصبح ابنه إرهابيا، أوقات كثيرة تمنى "منصور" الموت، و يتحسر لأنه لا يصيب أمثاله قط.

زاد كرهه لنفسه وأصبح يرى أنّ الكلب المتشرد أفضل منه، ولا يحق له رفع مستواه إلى مستوى الكلب، وكان يرى أنّ الجرائم التي اقترفها في حق هؤلاء الفتيات أكبر من جريمة والده «أنا مجرم من طرازٍ فريد وغريب، المشكلة أنّه لا يوجد من يسعني تسليم نفسي له كما فعل أبي، جريمتي غير منصوص عليها، غير معترف بها، لا توجد محكمة على الأرض ترضى بإدانتني»⁽⁴¹⁾.

والد "منصور" كان مجرما بقتله لزوجته وأدانه القضاء وسجن، أمّا منصور وبكل جرائمه وقمة تعفنها إلا أنّه لا توجد محكمة في الأرض تدبّنه.

بالإضافة إلى كرهه لذته هناك كره من نوع آخر وهو:

- كره اليهود:

"منصور" زاد كرهه لليهود كثيرا بعد هزيمة حزيران 1967 « ظلّت سيلين تتحدث عن الهزيمة بلا توقف، كما لم تفتأ تفعل منذ أن عرف العالم أن العرب خسروا الحرب مع اليهود قبل بدايتها، أي بعد تحطيم طائراتهم وهي لا تزال رابضة على الأرض، في تلك الأيام حاولت تفادي الالتقاء بها، لكن بدون جدوى»⁽⁴²⁾ حيث فقد "منصور" الرغبة في كل شيء حتى مضاجعتها، حتى شرب الخمر فقد الرغبة فيه، وهذا كله بسبب الهزيمة و"سيلين" كانت تذكره بالهزيمة باعتبار أنها يهودية الأصل.

ونجد كذلك نوعاً آخر من الكره، وهو كره الشباب الجزائري للجزائر في فترة التسعينات حيث كان يبحث عن وسيلة للهروب من الوطن الذي أصبح يميّته « تلك الأيام بدأت تلوح في الأفق سحابة قاتلة مشحونة بالشؤم تهدد البلاد، المستقبل صار يبدو غامضا، أسعار البترول تنهاوى، الشباب لا تفكير لهم إلا في الهروب بعيدا عن الوطن»⁽⁴³⁾.

أمّا صفة الحب التي ابتدأت ولم يشبها أي كره منذ بدايتها إلى نهايتها فكانت لزوجته "ضاوية" التي أنارت حياته ولإبنة عبد الواحد.

7- الشخصيات الأسطورية:

لقد اهتم الروائيون العرب بتوظيف الخطاب التاريخي والسياسي والديني والأسطوري في الرواية العربية، نتيجة للتحويلات التي مرّت بها، سعيًا منهم لإثبات أصالتها، ونفس الأمر كان مع الروائي الجزائري بصفة خاصة، حيث نجد حضورًا للنصّ الأسطوري في المتن الروائي باعتبار أنّها «نتاج وليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد»⁽⁴⁴⁾.

وقد تمّ توظيفها توظيفًا رمزيًا إذ إنّها «تهض هذه النظرية على أنّ الأساطير جميعها فعالية مجازية ورمزية وتتضمن في داخلها الحقائق التاريخية، أو الأدبية أو الدينية، أو الفلسفية، ولكن على شكل رموز»⁽⁴⁵⁾.

وبالنسبة إلى النصّ الروائي الذي معنا "بوح الرجل القادم من الظلام"، نجد أنّه لا يتضمّن العديد من الشخصيات الأسطورية، لكننا نجد شخصية الصوفي "سعيد الحفناوي" تحمل في ثناياها رمزاً أسطوريًا من خلال ما تملكه من كرامات ومعجائبية. "سعيد الحفناوي" كان بمثابة النور الذي تتبعه منصور وهو في مدينة (عين...) عله يساعده في التطهر من ذنوبه التي أثقلتته، وما عاد يحتملها، عند دخوله لهذه المدينة الميتة التقى بالشيخ الضيرير "الإمام مبروك"، سرد عليه "منصور" قصته وكانت سرا بينهما وقتها أحمش باكيا «أتذكر يوم أحمش باكيا أمام المملأ لأول مرة، كنت في جامع السنة أروي فصولاً من حياتي للإمام الضيرير، الشيخ مبروك، في لحظة من اللحظات، انفجرت باكيا»⁽⁴⁶⁾.

والإمام "مبروك" يبقى لا يعرف "منصور" حق المعرفة، لأنه لم يبح له بقصة كاملة نصحه الإمام "مبروك" بأن يذهب إلى الصوفي "سعيد الحفناوي"، فهو الوحيد في هذه

المدينة الذي يستطيع أن يريجه من ذنوبه، وكان ذلك حيث اتجه منصور يبحث عن مكان تلك القبة البيضاء التي يسكن فيها "سعيد الحفناوي"، وكما هو معروف عند شيوخ الصوفية هناك شخص مريد يتبعه ويأخذ منه، و"صادق الأحذب" كان هو ذلك المريد لـ"سعيد الحفناوي"، وهو من دل "منصور" على طريقته.

وأخبره عن بعض الأمور والعجائب التي تحدث للصوفي، مشيا طويلا معا حتى وصل إليه، فقبته تقع في أقصى المدينة في صحراء قاحلة، يقول "صادق الأحذب" إن هذا المكان له قدرة خارقة على تطهير النفس وغسلها، وعلى الرغم من قسوته وحده "سعيد الحفناوي" من « أمكنه أن يقهر هذه الأماكن، وحده دون أي حيوان أو نبات »⁽⁴⁷⁾ وأخبره كذلك أنه هناك أمورٌ خارقة تحدث لهذا الصوفي دون غيره، فالكرامة تحاكي الأسطورة «الكرامات سر، وسرٌ عظيمٌ لأنه مقدس، نطلع عليه بقرائها أو الاستماع إليها، وهي لهذا السبب ترعى القدسي وتنشره بين الناس، إنها أكثر الوسائل شيوعاً لنشر التربية المقدمة وهي في كل ذلك تحاكي الأسطورة التي هي الأداة الوحيدة للتربية، وإذا كانت شخصيات الأسطورة آلهة أو أبطالاً مدنيين فإنّ الأولياء بدورهم وبسبب مشاركتهم في القدسي، ليسوا بشرًا عاديين، بشرًا من مستوى أولئك الذين لا برهان لهم، فالولاية انتقال إلى مرحلة أسمى في الوجود، إلى درجة النبوة... بل إنهم "مشاركون" للألوهية في صفة القدرة على خلق الفعل الخارق»⁽⁴⁸⁾، ومن هذه العجائب:

يقال « أنّ طيوراً مهاجرة قادمة من أماكن نائية تأتي لتعرض نفسها عليه أملا في أن تكون طعاما له يقال ذلك أيضا عن الغزلان، غزلان لا أحد يعلم من أين تأتي»⁽⁴⁹⁾.

فكيف يمكن لهذا أن يحدث وسط هذه القفار القاحلة، لهذا يعتبر هذا الأمر من الأمور العجائبية غير القابلة للتصديق.

الهوامش والمراجع

- (1) غيبوب باية، الشخصية الأنثروبولوجية العجائبية في رواية "مائة عام من العزلة" ل: غابرييل غارسيا ماركيث، أنماطها، مواصفاتها، أبعادها، ص 53.
- (2) المرجع نفسه، ص 55.
- (3) جريدة حماش، بناء الشخصية في حكاية عبدو والمجاهم والجبل لمصطفى الفاسي، مقاربة فيسرديات، (د: ب)، (د: ط)، (د: س)، ص 63.
- (4) محمد عزام، فضاء النص الروائي، ص 88.
- (5) أمال منصور، بنية الخطاب الروائي في أدب محمد جبريل جدل الواقع والذات "النظر إلى أسفل نموذجاً"، ص 78.
- (6) سيمولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ترجمة: سعيد بنكراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار كرم الله للنشر والتوزيع، الجزائر، (د: ط)، (د: س)، ص 31.
- (7) المرجع السابق، ص 68.
- (8) الرواية، ص 268.
- (9) الرواية، ص 310.
- (10) الرواية، ص 311.
- (11) الرواية، ص 231.
- (12) الرواية، ص 306.
- (13) الرواية، ص 148.
- (14) الرواية، ص 148.
- (15) الرواية، ص 70.
- (16) الرواية، ص 86.
- (17) الرواية، ص 206.
- (18) ar-wikipedia.org/13/08/2013/12=42
- (19) الرواية، ص 206.
- (20) الرواية، ص 143.
- (21) الرواية، ص 144.
- (22) الرواية، ص 267.
- (23) الرواية، ص 232.

- «كتابه الذي يعد سيرة ذاتية... انتهى الأمر به إلى اختيار وتفضيل الطريق الصوفي على ماعده، لأنه سبيل القرب من الله تعالى، ومن سلك هذا السبيل يكون قد سعى إلى الفوز بوعد الله تعالى.» ← أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت، (ط:3)، 1429هـ.2008م، ص 186.
- (24) الرواية، ص300.
- (25) الرواية، ص 67.
- (26) الرواية، ص139.
- (27) الرواية، ص 66.
- (28) الرواية، ص35.
- (29) الرواية، ص5.
- (30) الرواية، ص133.
- (31) الرواية، ص81.
- (32) الرواية، ص 41.
- (33) الرواية، ص 284.
- (34) الرواية، ص287.
- (35) الرواية ، ص 66,67.
- (36) جريدة حاش، بناء الشخصية في حكاية عبدو الجماجم والجبل لمصطفى الفاسي (مقاربة في السرديات). ص68.
- (37) الرواية ، ص 12 .
- (38) فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية. ص29.
- (39) الرواية، ص15.
- (40) الرواية، ص 119.
- (41) الرواية، ص211.
- (42) الرواية، ص156.
- (43) الرواية، ص225.
- (44) نبيلة إبراهيم، اشكال التعبير في الأدب الشعبي. مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، (د: ط). (د: س)، ص 9.
- (45) نضال صالح، النزوع الأسطوري (في الرواية العربية المعاصرة)، دار الألفية، (ط:1)، 2010. ص15.
- (46) الرواية، ص237.
- (47) الرواية، ص 315.
- (48) الميلودي شغوم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي (السلسلة الصوفية). دار الحوار، سورية، (ط:2)، 2011.
- (49) الرواية، ص 318.